

كتاب الشعب

7

1983

صادق النيهوم

القرود

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

كتاب الشعب

صادق النيهوم

القرود

منشورات
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

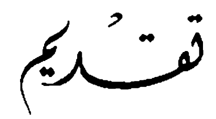
العدد 7 يوليو 1983

الطبعة الأولى

1392 و. ر 1983م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

صندوق البريد
595



تقديم

.. ومنذ الصباح الباكر بدأت جماعات متفرقة من قرود البابون تعبر مجرى النهر متجهة الى غابة البودونجو في شمال أوغندا. بعضهم اختار ان يعبر فوق جسر من الصخور المتناثرة عند المنحنى وبعضهم عبر متأرجحا بين فروع الشجر. وقد استمر العبور منتظما حتى منتصف النهار عندما فقدت إحدى الإناث طفلها في حادث مفاجىء وتوقفت تصرخ وتخبط صدرها في وسط النهر.

فوق، في الغرفة المقامة من أعواد البامبو على أعلى التلال المجاورة، أحضر المراقبون عدساتهم وشرعوا يتفرجون على المشهد صامتين. كانوا قد فوجئوا بعودة القرود المبكرة، وكانوا يتوقعون عودتهم بعد أسبوعين آخرين عندما ينضج التين في

نهاية يونيه. وفيما عدا ذلك فقد كان المراقبون يعرفون كل شيء عن قرود البابون في غابة البودونجو، ويعرفونهم تقريبا قردا قردا:

هـانيبال

قائد القطيع الغربي، عمره حوالي ثلاثين سنة ورأسه صلعاء ويعرج بشدة من رجله اليمنى. مقاتل ممتاز لكنه يفضل ان يهاجم خصومه من الوراء. سلطته مطلقة ومعظم قروده (معظم قروده) رهن إشارته. قطيعه مكون من ثماني وعشرين أنثى وتسعة ذكور وأربعة أطفال حديثي الولادة. اعتاد أن يزور غرفة المراقبين بحثا عن الخبز والمربى.

سَنوحي

قائد القطيع الأوسط، قرد مسن في العقد الرابع من عمره، خسر عينه اليسرى في معركة قديمة ضد هانيبال وانفصل عنه وأقام معسكره بعيدا عن المنحدر في وسط التلال، يحب التين، يحب العنب. قطيعه مكون من تسع إناث وثلاثة وعشرين ذكراً وعجوز واحد. سلطته ليست مطلقة، أحيانا يفعل ما يراه، أحيانا يغمض عينه ويتظاهر بأنه لا يرى.

هُولاكو

دعاه المراقبون أولا باسم غاريبالدي مخدوعين بمحاولاته الدائمة ـ والدموية ـ لتجميع القرود في مكان واحد شرقي الجرف، ثم عادوا فاختاروا له اسمه الحالي عندما شهدوا سلوكه تجاه القرود التي تجتمع في ذلك المكان. كان يتمتع بسلطان مطلق على جميع زعماء البابون، وكان يحتقرهم جميعا ويهزأ بهم جميعا ويقضي وقتا هائلا في تعذيبهم وشد ذيولهم كلما مروا من جانبه، وكان الزعماء يكرهون هولاكو ويرفضون الإقامة معه أو حتى المرور من جانبه.

جوهَان

عشيقة سنوحي،

يحبها هولاكو،

ويملكها هانيبال.

صَنْيَات صَنْ

ليس من طبقة الزعماء لكنه أيضا ليس من عامة الرعاع، شديد الولع بالإناث، شديد الولع بعلب الحليب الفارغة التي يجدها في قمامة المراقبين. مهمته تدبير الانقلابات ضد هانيبال. دبر ضده خلال الموسم الماضي تسعة عشر انقلابا فشلت جميعها واضطر في النهاية الى عقد حلف جانبي مع ثلاثة قرود آخرين للوقوف يدا واحدة في وجه هانيبال، أحيانا يتشاجرون معه، عادة يتشاجرون معا.

بالإضافة إلى ذلك

كان المراقبون قد تعرفوا إلى هوشي منه . القرد الملون ، ذي الفراء الأحمر واللحية القصيرة ، قائد القطيع الشرقي وأكثر القرود إثارة على الاطلاق ، وكانوا قد شاهدوه أول الأمر يطارد كلابا برية بعصا غليظة في يده ، ثم شاهدوه في مرة اخرى تحت أشجار التين يقذف عقربا بالأحجار ، وعندما عادت قطعان البابون لعبور النهر في نهاية الموسم الماضي تعرضت لهجوم مفاجىء من الكلاب وشوهد هوشي منه إذ ذاك بوضوح وهو يجمع الأحجار من ضفة النهر ويوزعها على الذكور البالغين . لقد كان قردا محيرا وخارقاً من جميع الوجوه ،

وكانت فكرته عن استعمال السلاح والقتال الجماعي المسلح هي التي دعت إلى إجراء التجربة .

« في يوم الخامس عشر
من يونيه ، قبل أن
ينضج التين بأسبوعين ،
في آخر . . آخر النهار
فتح المراقبون باب
القفص وأطلقوا سراح
الفهد » .

انحدر من التلة ومشى بحذر في اتجاه الجرف ، مخلبان تحت ومخلبان فوق ، بهدوء ومن دون أصوات حتى وصل إلى النهر . مد عنقه بين فروع الأشجار ورأى بجعتين تسبحان في وسط المجرى وحدس أنهما ستطيران فورا وتفضحان مكانه إذا ذهب الى الضفة ، لكنه ذهب الى الضفة وراقبهما ساخطاً فيما كانتا تقلعان فوق رأسه صارختين . لم يكن يطيق البجع . لم يكن يطيق أحداً . دار على يمينه وقصد منطقة المياه الضحلة ، مخلبان تحت ومخلبان فوق ، لم يكن في عجلة من أمره لأنه إذ ذاك يرفع جميع مخالبه عن الأرض ويقلع

بسرعة تتجاوز مرتين سرعة أي خصم يريد أن يهرب منه او يريد ان يلحق به ، لكنه لم يكن في عجلة من أمره . عند المنحنى وجد جثة قرد حديث الولادة .

اقترب منها بحذر واضطر إلى دس أنفه في المياه الباردة لكي يشمها عن كثب . فتح القرد عينيه ونظر إليه يائساً . كان قد ظل يغالب الغرق منذ أن سقط من يد أمه عند منتصف النهار .

وراء السفح ، في ضوء الشمس الغاربة ، ظهرت طلائع القرود متجهة الى الجرف . صن يات صن كان في المقدمة يحمل علبة حليب فارغة ويلهو بقذفها في الهواء . مرة تسقط أمامه ومرة تسقط وراءه ، وفي إحدى المرات سقطت فجأة فوق رأس هانيبال . أطلق

الزعيم صرخة تحذير وأمسك العلبة بين يديه ووقف ينظر حوله مهددا لكن صن يات صن قفز أمامه مطالبا بعلبته وعندما رفض أن يعيدها إليه عضه في عنقه مرتين . تراجع هانيبال إلى الوراء ووقف ينظر حائراً إلى خصمه . لم يكن رأسه قد بدأ يتكلم .

في اللحظة التالية هاجمه صن يات صن من جديد . طرحه على الأرض وشده طويلا من أذنيه ثم انضم اليه أعوانه الثلاثة وأخذوا منه علبة الحليب وجروه على وجهه ، وعندما استعاد توازنه في نهاية المطاف ركض مصعوقا الى حافة الجرف حيث أسند ظهره إلى الجبل ودخل في جولة يائسة من المفاوضات .

رفع يده وضرب بها صدره مرات ومرات . أطلق نباحاً عالياً . مد عنقه إلى الأمام وشرع

ينظر إلى خصومه . كان ذلك يعني (ماذا دهاكم ؟ أنا الرئيس) .

تقدم صن يات صن واضعاً يده على خصيتيه ووقف أمامه وشرع ينبح بصوت متقطع ، وكان ذلك يعني تقريبا (ليسقط هذا الرئيس) . راقبه هانيبال حائراً ثم عاد لخبط صدره ، وفي هذه المرة اقترب منه أحد القرود ونهشه في عقب قدمه . بدأ الدم ينزف ، زحف عليه قرد آخر وزحف وراءه صن يات صن ، وأدرك هانيبال من دون عناء أنه يواجه انقلاباً ناجحا . إذ ذاك بدأ رأسه يتكلم :

« الآن تهرب » قال له رأسه « الآن تذهب إلى النهر ، تنتظر عبور بقية القطيع ، تبقى معهم ، تعود معهم ، دائما تكون معهم ، لا أحد يضربك ، لا أحد يشد أذنيك من

الوراء » . واندفع كالسهم من بين خصومه وطرح القرد الذي تعلق بذيله على الأرض وأقلع يركض في اتجاه النهر . في الطريق قال له رأسه « ليس حسناً أنك تذهب بمفردك بعيدا عن القطيع ، ليس حسناً بالمرة ، أحياناً تموت ، أحياناً تنجو لكن بعد ماذا ؟ » .

○ ○ ○

وقبل أن تغرب الشمس ذلك النهار كان القرود قد وصلوا جميعا الى منطقة الجرف واحتلوا معظم الكهوف الصالحة للسكن وفرشوها بأغصان الأشجار . هولاكو احتل الكهف الواقع في وسط الجرف دون ان يجد من ينازعه . هوشي منه ذهب بقطيعهِ الى القمة واختار مبيته الليلي على بعد نصف ميل من الأرض . هانيبال عاد يعرج على رأس

قطيعه واتجه بهم الى الطرف الغربي واختار مغارة واسعة بعيدة عن مهب الرياح ، وعندما انضم اليه صن يات صن وأعوانه الثلاثة خرج لينام على باب المغارة ملتزما جانب الحذر ريثما يصفي حسابه معهم في الصباح . سنوحي عاد إلى مكانه القديم في وسط التلال لكنه هذه المرة ظهر علانية في صحبة جوهان واعتلاها مرات ومرات على مشهد من الآخرين .

من أسفل الوادي حمل النسيم المسائي رائحة التين غير الناضج ، وغاص قرص الشمس وراء الأفق ومد القرود أعناقهم مستسلمين للخدر الذي يقفل عيونهم الخالية من الرموش . إذ ذاك ظهر في الوادي . وسار طويلا في وسط السهل قبل ان يختفي بين الأشجار ، مخلبان تحت ومخلبان فوق ، بهدوء ومن دون أصوات حتى اختفى بين الأشجار .

ثم ظهر مرة اخرى عند الطرف الشرقي للجبل ووقف ساكناً يتشمم الريح . بعد قليل رفع ذيله وشرع يبول وكان ذلك يعني أن المكان قد أعجبه .

○ ○ ○

في الصباح سقطت أمطار غزيرة وسيطرت السحب المنخفضة على مدخل الوادي ولم يتمكن المراقبون من تسليط عدساتهم إلا في آخر النهار عندما انقشعت السحب فجأة وظهرت الشمس فوق قمم الأشجار الممتدة غربا بحذاء النهر . هناك كان المشهد محيراً بعض الشيء .

مئات من قرود البابون ، مئات كثيرة منهم ، بعضهم في قمم الأشجار ، بعضهم

فوق الفروع ، بعضهم يحك جلده ، بعضهم لا يحك ، وكلهم يجلسون صامتين وينظرون إلى أسفل .

على أرض الغابة وقف صن يات صن في مواجهة ثلاثة من الزعماء . هولاكو في الوسط ، سنوحي على يمينه ، هوشي منه على شماله . المشهد من الخارج يشبه المحكمة لكن المراقبين كانوا قد اكتشفوا من زمان أن القرود لا يملكون أصلا أي إحساس بالعدالة . هانيبال كان يقف على المنصة :

تقدم الى الأمام وضرب رجله في الأرض ملوحاً بذراعيه الهائلين ، عاد خطوة إلى الوراء ، وقف يشد أذنيه أمام هيئة المحكمة ثم دار فجأة وأطلق نباحاً عالياً في وجه صن يات صن . كان ذلك يعني (هذا خائن ، هذا يشد

الرئيس من أذنيه) ، وهي تهمة عقوبتها الموت أو النفي في مجتمع البابون .

من الظل خرج صن يات صن ملطخا بدماه . زحف على بطنه في اتجاه هانيبال . وضع رأسه على الأرض . كان ذلك يعني (لا تغضب ، أنت الرئيس ، وكلنا نلعق خصيتيك) لكن هانيبال كان غاضباً جداً .

قفز إلى الوراء متجاهلا خصمه الذليل ودار حول الأشجار وعاد يواجهه مرة أخرى ، وفي هذه المرة استدار صن يات صن ورفع مؤخرته الى أعلى وانطلق يزحف الى الوراء ، وكان ذلك يعني بالتفصيل (لا أرغب في قتالك ، لا أستطيع ، اعتبرني واحداً مثل واحدة من إناثك) . بحذر تقدم هانيبال من مؤخرة خصمه . بحذر رفع له ذيله إلى أعلى ، استند

على كتفه ، اعتلاه ، هز مرة ومرة ثم نزل راضياً . بعد ذلك تقدم القرود الذين شكلوا ما يشبه المحكمة . هولاكو أولا ثم سنوحي ثم هوشي منه . كل واحد منهم ركب على المتهم ، كل واحد فعل ما فعل . بعد هيئة المحكمة نزل بعض الجمهور . عشرات من قرود البابون نزلوا لاعتلاء صن يات صن المتهم بالخيانة . بعضهم اكتفى باعتلائه وهزه . بعضهم شده من ذيله وعضه في أذنيه . بعضهم قال له كذا ، بعضهم قال كذا . في نهاية المطاف تقدم هانيبال واعتلاه مرة أخرى ، وإذ ذاك ساد الصمت ومد المراقبون أعناقهم وحدقوا واجمين في عدساتهم المعتمة . فقد كان من المعروف لديهم أن قرود البابون لا يسمحون لرعاع القطيع باعتلاء قرد من الطبقة الحاكمة إلا إذا كانوا يزمعون ان

يصدروا ضده حكما بالموت ، إذ ذاك فقط يسمحون باعتلائه لمن هب ودب ويشدون ذيله وينتفون شعره ويرغمونه على مغادرة القطيع والعيش وحده في الغابة . أحياناً تقتله الكلاب البرية ، أحياناً تجده الكلاب ميتاً . وقد طردوا صن يات صن :

○ ○ ○

ومشى وحده هائماً على وجهه في الغابة الممطرة . مشى حتى منتصف الليل . دار مرات حول الجرف . توقف طويلا لكي يعوي ويحك ظهره . تسلق حينا ومشى حيناً آخر ولم يجد أخيراً ثمة ما يفعله فعاد الى الضفة وغسل جراحه في النهر . كان يائساً ويائساً ، وكان رأسه يتكلم بلهجة اليائسين .

في إحدى المرات قال له رأسه (أهبل من

يشد ذيل الزعيم . أهبل من يضع أمامه يده على خصيتيه) . وفي مرة أخرى قال له شيئا غامضا عن الموت وعند منتصف الليل سمعه يقول له بوضوح أن كلبا هائلاً في حجم عدة كلاب يتبعه من بعيد . إذ ذاك ظهر وراءه . ومضى بحذر فوق أوراق الأشجار اليابسة تحت ستار كثيف من الظلمة ، مخلبان تحت ومخلبان فوق ، بهدوء ومن دون أصوات حتى وصل إلى الضفة .

في الظلمة ، عند مدخل الوادي ، كان صن يات صن قد لمح عند منتصف الليل ظلا يتبعه على الضفة واعترته الشكوك تجاهه فقرر ان يترك المنطقة بأسرها ويذهب لقضاء الليل بين أشجار التين . في منتصف الطريق سمع أحداً ما يركض وراءه اعتراه الخوف فانطلق

يركض بدوره لكن خصمه كان قد أصبح فجأة عند عقبيه . في لحظة ما بين الحلم واليقظة سمع القرد رأسه يقول له (الآن تنحرف) .

وانحرف الى اليمين في الوقت المناسب وكسب خمسة أمتار ثمينة بينه وبين خصمه الذي انزلق بمهارة على العشب المبلول ثم استدار وعاد يركض في أعقابه .

أربعة مخالب صامتة تشق جوف الظلمة ، ترتفع ، تنثني ، تمتد ، تمتد ودائماً تقترب

خمسة امتار . أربعة أمتار . ثلاثة أمتار ، مرة أخرى سمع القرد رأسه يقول له (الآن تنحرف) . وانحرف بصعوبة إلى اليسار وكسب مترين بائسين ووجد الشجيرة الوحيدة التي تقف في وسط السهل وتعلق بها في آخر . . آخر لحظة من حياته وكسب لنفسه

حياة صاخبة جديدة . فحتى ذلك الحين كان صن يات صن قد التزم الصمت وأنصت جيدا الى رأسه لأنه لم يكن قد رأى خصمه عن كثب ولأنه اعتقد أنه مجرد كلب بري لا يلبث أن يعود أدراجه ، لكنه عندما استقر فوق الشجيرة وحدق في الظلام مستطلعا لم يعد بوسعه أن يمنع فمه من الصراخ . وقد أطلق صرخته الأولى عند منتصف الليل وظل يصرخ من دون انقطاع الى الساعات الأولى من فجر اليوم التالي . إذ ذاك أظهر خصمه رغبته في الانسحاب ومشى بخيلاء في اتجاه النهر وفتح صن يات صن عينيه الدامعتين وراقبه بيأس حتى اختفى بين الأشجار .

ooo

من نوافذ الغرفة المقامة فوق التلة كان المشهد ينجلي تدريجياً في عتمة الفجر : مئات من قرود البابون ، مئات مذهولة منهم ، يتدافعون على طول الجرف ويركضون في المطر على غير هدى ، كل واحد يصرخ ، كل واحد يحرك يديه .

فوق القمة ، أمام الكهف الذي يملكه هوشي منه ، تجمع الزعماء على عجل ومن دون نظام في الرتب . سنوحي في الوسط ، هوشي منه على يمينه ، هانيبال على يساره ، بعد تأخير متطاول وصل هولاكو واضعا يده على خصيتيه وانعقد الاجتماع الطارىء تحت وابل من المطر الصباحي .

وقد كان اجتماعا طويلا وغير مثمر تخللته معارك طاحنة بين هانيبال وهولاكو بسبب

جوهان ، وبين هولاكو وسنوحي بسبب هانيبال ، وبين سنوحي وهوشي منه بسبب هولاكو ، وبقي اجتماعا مملا ومخيبا لآمال المراقبين الذين ما لبثوا أن اداروا عدساتهم الى مدخل الوادي يائسين من أي ردة فعل من جانب القرود .

عند مدخل الوادي ، فوق شجيرة وحيدة وسط السهل ، جلس صن يات صن وكل شعرة في رأسه منتصبة الى أعلى وحدق طويلا في عتمة الضوء الرمادي لكن خصمه كان قد انسحب الى الدغل .

مد عنقه وشرع ينظر حوله مقطبا حاجبيه ، فلم يكن يريد ان يصدق بأن خصمه قد انسحب حقاً . بعد ساعة من التردد بدأ شعره

المنتصب يعود الى مكانه . بعد ساعة أخرى بدأ يخطط للنزول . كانت الرؤية إذ ذاك حسنة رغم سقوط المطر وكان بوسع المراقبين في الغرفة المقامة فوق التلة ان يسجلوا المشهد كله بشيء من التفصيل .

فعند الساعة الثامنة تحرك صن يات صن عائداً على حين غرة الى وسط الشجيرة ولفت هذا التطور أنظار القرود الواقفين حول الجرف فتدافعوا الى حافة الوادي وطفقوا يحدقون صامتين ، أما الزعماء المجتمعون على القمة فقد أدركوا فوراً أن صن يات صن يخطط للنزول لكنهم لم يتفقوا فيما يبدو على موقف موحد تجاهه وفضوا اجتماعهم غاضبين وذهبوا للفرجة من طرف الجبل . سنوحي لم يذهب للفرجة بل عاد إلى كهفه وانشغل بجوهان .

عند الساعة الثامنة والنصف وصل صن

يات صن في هبوطه البطيء والمتناهي الحذر الى منتصف الجذع وتعلق بأحد الفروع وتوقف ينظر طويلا الى السهل . كان من الواضح أنه يخطط للوصول الى أشجار التين الواقعة على بعد مائة متر عند طرف السهل وكانت مشكلته الواضحة انه لن يستطيع أن يصل إليها أبدا . فجأة انفلت يجري .

دار الى اليسار متجنبا منطقة الطحالب وركض بسرعة في اتجاه أشجار التين . سمع القرود تهلل له مشجعة . سمع رأسه يقول له (ليس حسنا ، ليس حسنا) . استدار فجأة ونظر حوله مستطلعا . ورآه يعدو قادما في اتجاهه من قلب الغابة . في اللحظة التالية توقف صن يات صن عن الجري ودار على عقبيه وانطلق عائدا الى شجيرته . كان يعرف أكثر من سواه

أن شجيراته هي الآن أقصى ما يستطيع أن يطمح إليه . ثم سمعه يلهث وراءه وأحس به يسقط فوق ظهره ويطرحه على الأرض لكنه نهض وتابع ركضه . أسقطه مرة اخرى ونهض . أسقطه ونهض . أسقطه ونهض . ركض وراءه وشق فراءه بجرح طويل غائر وأطلق القرد صرخة موجعة وقفز يائسا إلى أعلى . إذ ذاك رأى شجيرته تمد له فروعها ، تنحني عليه، تنحني، تمسكه، ترفعه من بين مخالب عدوه، ترفعه، ترفعه . . .

تقديم

طوال اليومين التاليين هبت رياح ترابية على غابة البودونجو محملة بأسراب من الجراد . واستمر هطول المطر ، وقضى صن يات صن وقتا قاسياً جداً فوق شجيرته في وسط السهل . لم يعاود محاولة النزول ولم يكف عن إبداء الحسرة ولطم رأسه بيديه . وقد أدركه اليأس أمام سرعة خصمه وتخلى عن خطته السابقة للوصول إلى أشجار التين وشرع يروض نفسه على أكل أوراق الشجر . ورقة يمضغها بدموعه . ورقة يبصقها باكيا . واحدة يجدها مريرة وواحدة يجدها أقل مرارة . كان يتعلم ببطء لكنه كان يتعلم .

حول الجرف أحدث ظهور الفهد ردات فعل متفاوتة وكشف القرود عن فروق فردية واضحة في مواجهة المحنة . كل واحد منهم أظهر خطة مختلفة . كل واحد منهم كان يملك نظرية :

هَانيبَال

استسلم للخوف وطفق يذرع مغارته جيئة وذهابا ويحك تحت إبطيه . لم يسمح لأحد من قروده بالخروج ولم يسمح لهم حتى بالكلام . كانت خطته بسيطة ودائمة « أسكتوا » .

سَـــنوحي

لم ير الفهد لكنه زعم أنه رآه ، وأخذ جوهان من يدها وانطلق يطوف على قرود البابون ويتحدث إليهم عن سطوة الفهود ذات الرؤوس الحديدية وقدرتها الفائقة على القتل . أحيانا كان كلامه مضحكا . أحيانا مجرد كلام .

هُوشِي مِنْه

(الذي أدهش المراقبين دائماً بحيله الخاطفة)

أظهر حيلة إضافية لكنها لم تكن ذات علاقة بالفهد . فقد هبط الى الوادي وابتكر طريقة جديدة في جمع الجراد بأن صف قروده في دائرة مغلقة ووقف في وسطهم ودعاهم الى أن يصرخوا عالياً ويضربوا الأرض بأقدامهم . كلما صرخ القرود طارت أسراب من الجراد في اتجاه هوشي منه الذي يتلقفها في الهواء . كلما تلقف الزعيم جرادة أطلق القرود مزيدا من الصراخ . بالتدريج بدأت اللعبة تبدو مبهجة . بالتدريج انهمك القرود في الصراخ رغم أنهم لم يحصلوا على شيء من الجراد . كانت الخطة

مثالاً طيباً من أمثلة التنسيق بين الزعيم وبين قطيعه لكنها للأسف لم تكن ذات علاقة بالفهد .

هـُولاكـو

هو الذي راقب الفهد أكثر من سواه وهجر مغارته واختار مغارة أخرى فوق الطرف الشرقي لكي يتفرغ لمراقبته في مأمن من المطر . وقد شاهده أول مرة يعدو في أعقاب صن يات صن واعتقد انه مجرد كلب كبير الحجم ووقف يضحك ويمطق شفتيه ازدراء للقرود الخائفين ، ثم شاهده في مرة أخرى عندما جاء لكي يتسلق الشجيرة وراء خصمه ، وتذكر إذ ذاك أن الكلاب التي يعرفها لا تتسلق الشجر فوضع يده على خده وجلس واجماً عند مدخل مغارته . في المساء ظهر الفهد مرة أخرى وبذل بضع محاولات

جديدة لكي يتسلق الفروع اللينة بعد ان وصل الى منتصف الجذع ، وراقبه هولاكو عن كثب لكنه لم يكتشف أبداً أنه ليس مجرد كلب . وعندما نام في تلك الليلة وعاودته أحلامه العريضة رآه في الحلم يتسلل من بين الأشجار وضربه بعصاته على أنفه وتركه يعوي ويعوي وترك القرود يضحكون عليه .

لقد كان هولاكو أكثر الزعماء عرضة للخطر نتيجة جهله وعدم الإنصات إلى رأسه لكن هطول المطر منعه من الخروج إلى وسط السهل طوال اليومين السابقين .

« في اليوم الثالث
أشرقت الشمس
واستيقظت الغابة تحت
سماء كاملة الصفاء
والزرقة وظهر هولاكو
عند نهاية الطرف
الشرقي بين ثلاثة من
قروده المحاربين . كان
يلوح بذراعيه ويصرخ
بأعلى صوته ، وكان
ذلك يعني أنه ينوي أن
يتحدث إلى عموم
القرود » .

. . . بعد تأخير دام ساعة كاملة تجمّع القرود حول هولاكو واتخذوا أماكنهم صامتين في انتظار خطبته . بعضهم كان يسعل . بعضهم لم يكن . سنوحي حضر في صحبة جوهان . هوشي منه حضر بعدهما وشق طريقه مقطب الجبين الى الصفوف الأمامية . هانيبال لم يحضر واكتفى بسماع الخطاب من معقله الآمن قدام مغارته .

وتحت سماء كاملة الصفاء والزرقة وقف هولاكو يتحدث بلغته البسيطة الخالية من الإيقاع والمعتمدة كلية على نوع الذبذبة وحركات اليدين : « العدو كلب » قال هولاكو

« كلب هو ، مجرد كلب ، أنا أعرف ، أنا أرى ، تقولون نعم ، تقولون لا ، ذلك أمر لا يخصني ، أنا أعرف أنا أرى » .

أطلق القرود صرخات عالية وأخذوا جميعا يهزون رؤوسهم . بعضهم هكذا ، بعضهم هكذا ، سنوحي هز رأسه من اليمين الى الشمال وقال ما معناه أن العدو ليس كلبا . إذ ذاك عاد هولاكو الى الكلام :

« العدو كلب » قال هولاكو « كلب هو ، تضربه بعصاك ، تضربه بحجر ، تفعل به ما تشاء ، تراه دائما يهرب أمامك وذيله بين رجليه ، أنا أعرف . وهذا لا يعرف ، هذا أيضا مجرد كلب » . كان يشير إلى سنوحي ، وكان من الواضح انه لا ينوي أن يغفر له معارضته على مشهد من جوهان . ساد

الصمت ، وقف سنوحي ، اعتلى صخرة وراءه وأشار الى هولاكو :

« هذا جاهل » قال سنوحي « هذا رأسه لا يتكلم . العدو فهد ، الفهد يقتل عشرة قرود بضربة واحدة ، تقولون لا ، تقولون نعم ، ذلك أمر لا يخصني . أنا أعرف . أنا عيني واسعة ورأسي يفهم ويتكلم » . أطلق هولاكو صرخة عالية وتقدم من المنصة رافعاً يديه :

« هذا كلب » قال هولاكو مشيراً الى غريمه « هذا كلب مثل العدو . هذا والعدو اثنان من الكلاب » . تقدم سنوحي لكي يرد لكن هوشي منه قرر أن يتدخل وسبقه إلى الكلام .

عند الظهر كان هوشي منه ما يزال يتكلم ، وكان معظم القرود قد وقعوا فريسة الملل وتسربوا من الاجتماع مطرقي الرؤوس .

بعضهم نزل إلى الوادي بحثا عن الجراد . بعضهم جلس في الشمس وانهمك في تفلية فرائه من القمل . واحد منهم ـ قرد صغير رمادي اللون في الثانيةمن عمره ـ وجد قنفذا بين الطحالب وانطلق يطارده على طول المنحدر . القنفذ يمشي والقرد يمشي في أثره . القنفذ يقف ويلتفت وراءه والقرد يقف ويمد عنقه مستطلعا . لا أحد اعتراه الذعر . لا أحد زاد من سرعته حتى وصلا الى مدخل الوادي .

بعد ذلك خرجا في اتجاه السهل ومرا بالقرب من الشجيرة التي التجأ اليها صن يات صن لكن أحدا منهما لم يهتم به وواصلا طريقهما في اتجاه أشجار التين . القنفذ يمشي والقرد يمشي في أثره . القنفذ يقف ويلتفت وراءه والقرد يقف ويمد عنقه مستطلعا . فجأة

صدر صوت صاعق من بين الأشجار .

سمعه الزعماء المجتمعون فوق القمة وسمعه صن يات صن والقرود والمراقبون وسمعه القنفذ فتوقف عن المشي وأصبح فجأة كرة من الشوك .

في اللحظة التالية ظهر بكامله . اختطف القرد . كسر عنقه بين أنيابه . جرّه وراءه داخل الغابة . في لحظة أخرى اختفى بكامله . لم يتحرك أحد ، لم يتحرك شيء ، حتى الزعماء وقفوا جامدين مثل قرود من الحجر . وبعد فترة الجمود بدأت فترة الصراخ .

هانيبال وقف يصرخ أمام مغارته ويخبط رأسه بيديه ومئات من قروده يصرخون وراءه داخل المغارة . أحيانا يطل برأسه ويقول لهم

« أسكتوا » . وأحيانا ينظر الى الوادي ويصرخ بنفسه .

سنوحي لم ير الفهد في هذه المرة أيضا لكنه عرف بظهوره من جوهان وبذل جهدا عظيما للسيطرة على خوفه فكان مرة يصرخ ومرة ينجح في عض لسانه . هولاكو كان أول من صرخ وأول من استنفذ طاقته في الصراخ ، وقد عاد فأثار دهشة المراقبين للمرة الثانية ذلك النهار عندما اعتلى المنصة فجأة وأخذ يخطب من جديد .

في هذه المرة قال هولاكو « أيها القرود ، كفى صراخا . كل واحد منكم يغلق فمه . كل واحد منكم ينصت إلى فمي . الآن ننزل . الآن نضرب الكلب ونطرده من هنا ، تقولون ممكن ، تقولون غير ممكن ، ذلك أمر يخصكم وحدكم . انا أعرف . أنا أرى » .

وفي الحال ، تحت سماء كاملة الصفاء والزرقة ، خرج القرود حقا في قطيع هائج واحد بقيادة هولاكو . لكنهم لم يخرجوا جميعا :

هانيبال

تخلف عن الخروج وطفق يروِّج بين قروده خرافة مؤداها ان الفهد قد جاء لالتهام صن يات صن فقط نتيجة صفاقته عندما شد رئيسه من أذنيه .

سَنوحي

تخلف أيضا عن الخروج زاعماً أن الفهد سيقتل جميع القرود بضربة واحدة من مخلبه أو ـ على الأكثر ـ بضربتين ، لكنه أرسل بعض قروده المحاربين وشد على أيديهم مشجعا .

هُوشِي مِنْه

خرج بقطيعه مطرق الرأس ، لكن رأسه كان يلومه على الخروج .

في منتصف السهل توقف القرود . وظهر هولاكو حاملا عصاته بين ثلاثة من قروده المحاربين وتقدم محني الظهر في اتجاه الدغل . كل شعرة في رأسه منتصبة الى أعلى . كل عظمة في رأسه تقول له «حسنا وليس حسنا» . فجأة توقف على مقربة من الأشجار . مد عنقه متفحصا ، نظر هنا ونظر هنا ثم رفع عصاته وضرب الأرض بقدمه ، وكان ذلك يعني في لغة الحرب «أخرج أيهاالعدو وانظر ماذا يفعل بك هولاكو» لكن الفهد كان قد انسحب بعيدا وراء النهر وانهمك في تناول عشائه .

مرة اخرى صرخ هولاكو رافعا عصاته ، ومرة أخرى لم يخرج أحد لمبارزته ، فبدأ شعره

المنتصب يعود الى مكانه . بدأت بعض عظام رأسه تقول له « حسنا » . بعد قليل رمى عصاته على الأرض ووضع يده على خصيتيه وشرع يضحك مترنحا ، وكان ذلك يعني « انتهت الحرب . انهزم الكلب كما قال لكم هولاكو » ، لكن القرود ـ فيما يبدو ـ لم يصدقوا هذا الخبر .

بحذر تقدموا إلى أشجار التين . بحذر فتشوا المكان بأنفسهم . قلبوا الشجيرات ونظروا هنا ونظروا هنا ولم يجدوا أثراً للعدو سوى رائحته وقليل من بوله . إذ ذاك صدقوا وحملوا هولاكو فوق أكتافهم وانطلقوا يركضون في وسط السهل .

كان احتفالا واضحا بالنصر ، وقد دام الى وقت المغيب ووصل القرود الهائجون الى

أطراف الدغل وأكلوا بوادر التين الناضجة وعثروا على بعضٍ البيض في أعشاش الدجاج البري ولعبوا طويلاً في السهل .

هولاكو عثر على القنفذ متكورا في مكانه فهجر الاحتفال مبكرا وجلس يتأمله ويلكزه ضاحكاً بعصاته. كان يبدو في أحسن حالاته، وكانت كل عظمة في رأسه تقول له « حسنا »، لكنه سمع فجأة أحدا ما يعدو في اتجاهه. . ويلهث. . ويلهث.

انتصب واقفا. كل شيء فيه انتصب واقفا. نظر حوله. سمع رأسه يقول له بوضوح « الآن تهرب، الآن تهرب ». استدار ليهرب لكن القادم كان مجرد صن يات صن.

« ماذا تريد ؟ » قال هولاكو بعد ان تمالك

روعه وعرف أنه ما يزال هولاكو .

« أذهب معكم » قال صن يات صن ووضع رأسه على الأرض « فقط أذهب معكم » . استرعى وجوده نظر القرود ، تذكروه جميعا وتجمعوا حوله مرحبين ، بعضهم يحك أنفه بأنفه وبعضهم يمطق له شفتيه ، لكن هولاكو رفض طلبه .

لم يسمح له بالعودة معه الى الكهوف ولم يسمح له حتى بالذهاب الى أشجار التين بل أمسكه من عنقه وأرغمه على الصعود الى مكانه فوق شجيرته الوحيدة في وسط السهل وقال له على مسمع من القرود والمراقبين « تذهب معنا ، تحبك مزيدا من الدسائس . تذهب الى أشجار التين ، يفقد الكلب أثرك ونحن نفقد أثر الكلب . هذا كله لا يدخل في رأسي .

هولاكو يقول لا » . على مستوى النظر كان القرار يبدو طبيعيا ومتمشيا مع روح الغابة .

○ ○ ○

فوق ، في الغرفة المقامة فوق التلة ، كان القرار يبدو مزريا ، وكان المراقبون قد فوجئوا كثيراً بالأسلوب البدائي الذي اتبعه القرود في القتال . فبدلا من أن يخرجوا جميعا في صفوف منظمة تحت قيادة هوشي منه ويطردوا الفهد بعصيهم ، خرجوا يتسكعون وراء هولاكو الذي اختلق أمامهم معركة وهمية ضد عدو غائب وجعلهم يعتقدون أن الفهد قد طرد نفسه . وبدلا من أن يصل هوشي منه البارع في حبك الحيل الى مركز القيادة ويقود قروده إلى النصر بحيلة إضافية ، بقي في مؤخرة القطيع قانعاً بأن يتركه هولاكو (أحيانا) يمشي

على يمينه . وبدلا من أن يتضامن الزعماء في أيام المحنة ويشتركوا في الدفاع عن أنفسهم ضد عدوهم المميت ، شرعوا يتشاجرون ويتبادلون التهم على مسمع من قرودهم المدهوشين . هذا يقول أن الآخر خائن ، والآخر يقول أن هذا مجنون . كل شيء فعله القرود كان مخيباً للآمال وغير متوقع في أصل التجربة التي رسمت لهم صورة مهيبة أقرب الى صورة البشر . كل شيء كان يشير إلى أنهم مجرد قرود .

○ ○ ○

بالاضافة إلى ذلك واجه المراقبون مشكلتين طارئتين عن التجربة بأسرها . الأولى تخص صن يات صن الذي قرر الزعماء استعماله بمثابة طعم وبقي معرضا للموت جوعاً فوق شجيرته في انتظار الفهد ، فيما ظفر الفهد نفسه

بوجبة تكفيه على الأقل لمدة أربعة أيام وذهب بعيداً وراء النهر.

o o o

المشكلة الثانية تخص هانيبال الذي لم يدفعه ظهور الفهد إلى قتاله بل إلى تقليده . ورغم أنه أظهر في البداية كرهاً واضحاً تجاهه وبقي مختبئاً في مغارته إلا أن وصول هولاكو إلى أشجار التين ومعركته الوهمية الظافرة شدا من عزيمته وشجعاه على العودة الى ارتياد الوادي من جديد . وفي هذه المرة اكتشف المراقبون بدهشة أن هانيبال لم يعد يشبه نفسه ، فقد كان يمشي بطريقة غريبة ويأكل بطريقة غريبة ، وكان بوسع المراقبين ان يروا بوضوح أنه يتدرب على تقليد الفهد ، لكن أحدا منهم لم يحدس لماذا يلجأ هانيبال الى تقليد الفهد دون

سواه ، وعندما حدسوا في نهاية المطاف كان كل شيء قد بدأ وانتهى .

○ ○ ○

ففي اليوم الرابع لغياب الفهد . قبل ان ينضج التين بأسبوع واحد . في أول . . . أول النهار تسلل هانيبال في غفلة من قروده الى داخل الغابة ودار حول الضفة واختبأ بعيداً بين الأشجار . كان يبدو مثقلا بالهم وكان رأسه يقرعه من دون سبب . بعد قليل ظهر سنوحي في صحبة جوهان وذهبا معا متشابكي الأيدي في اتجاه النهر حيث سبحا طويلاً وانهمكا في صيد الضفادع تحت الشلال . مرة تطعمه ومرة يطعمها . أحياناً يعض يدها ، أحيانا تعض يده . هانيبال كان يراقبهما من مخبئه بين الأشجار وكان رأسه قد بدأ يقرعه بسبب

جوهان . ألف مرة قال له رأسه من قبل « لماذا يأخذها ؟ لماذا هو؟ ألست أنت أيضا قردا مثله ؟ أليس عندك ما عنده ؟ » لكن هانيبال رفض دائماً أن يرد . في هذه المرة قال له رأسه على مسمع من بعض النمل « نملة أنت ، أكثر من ذلك لا تستحق ، وأقل من ذلك لا تستحق » ، وفي هذه المرة غضب هانيبال وبدأ يدافع عن نفسه :

« أنا ماذا »؟ قال هانيبال « أنا فقأت له عينه » .

« هش » قال له رأسه .

« لماذا ؟ » قال هانيبال .

« هش » قال رأسه « لماذا تتكلم ؟ أنت مثل هذه النملة . تقول نعم ، تقول لا ، ذلك أمر

يخصك وحدك . أنا أعرف . أنا رأسك » .
عند الظهر كان يحس بالدوار وكان رأسه ما يزال يقرعه لكنه لم يعد يبالي بالرد عليه . إذ ذاك سمعه يقول له على حين غرة « الآن تذهب ، الآن تتسلل الى الضفة ، تزحف على بطنك ، تزحف ، تجده يجلس معها في الظل ، تجده يفليها ، تجده كما تجده ، تمد يدك من ورائه وتفقأ له عينه ، ليس عينه التي فقأتها سابقا بل عينه الأخرى التي بجانبها ، تضع فيها إصبعك ، يصبح أعمى ، يصبح لا أحد ، يصبح ما يصبح ، تتركه يعرف ماذا يعني أن يسرق منك قردتك ،! تتركه يعرف ما يعرف . . »

○ ○ ○

ومن دون مقاومة تذكر ، انحنى هانيبال مقطبا حاجبيه وانطلق يزحف على العشب .

○ ○ ○

خلال الساعة التالية احتفظ المراقبون بعدساتهم مسلطة على هانيبال الذي أثار شكوكهم بسلوكه الغريب ، فقد جاء يزحف بحذر من بين الأعشاب المؤدية الى النهر دون سبب يدعوه إلى الزحف ، وبعد أن وصل الى الضفة اختبأ متعمدا بين الصخور وجلس يراقب منطقة الشلال . هناك كان سنوحي يركض وحده في أثر ضفدعة .

بعد قليل تسلل هانيبال وراء الصخور ودار حول المنحنى وقصد خصمه زاحفا على بطنه . كان من الواضح أنه يرتكب جريمته في الخفاء لكي تبقى في الخفاء لكن صن يات صن الذي

لا يملك ما يفعله كان يراقبه مدهوشا من فوق شجيرته .

فجأة قفز هانيبال في الهواء وانطلق في اتجاه خصمه وحط وراءه مباشرة ثم ثنى يده بسرعة البرق ووضع إصبعه في عينه . في لحظة خاطفة تم كل شيء وفي اللحظة التالية دوت الغابة بصرخات سنوحي المتناهية اليأس . كان العالم قد اختفى فجأة من أمامه .

هانيبال تراجع بسرعة ولكن من دون خوف وركض على مشهد من المراقبين المصعوقين وتسلل عائدا بين الأشجار وانهمك فجأة في تمثيلية محيرة . مرة يصرخ بصوت الفهد ويرمي نفسه على الأرض ومرة يصرخ بصوته ويقفز بين الفروع ، ودائماً يرفس برجليه وينظر محاذراً

الى الضفة . بعد ذلك عاد مترنحاً ووجد جوهان تنتف فراءها بجانب سنوحي الأعمى ووجد مئات من قرود البابون يربتون على كتفها ويلطمون رؤ وسهم حائرين .

« أيها القرود » قال هانيبال متطوعا بالشرح « هذا من فعل الفهد . أنتم سمعتم صوته . أنا رأيته وضربته . طبعا ضربته . أولا على قلبه وبعد ذلك على خصيتيه . هل كنت سأقف مكتوف الأيدي ؟ هل كنت سأقف موقف المتفرج ؟ قرد مثلي يهاجمه الفهد ، هل أتركه يصرخ وأتظاهر بأن أذني هذه مريضة وأذني هذه لا تسمع ؟ » .

« لا » قال القرود .

« طبعا لا » قال هانيبال « لقد أشبعته ضربا ، أولا هكذا وبعد ذلك هكذا . هل

كنت سأربت على كتفه ؟ وحش يهاجم قرداً منا ، يكفي أنه فقأ له عينه ، هل أتركه أيضا يأكله ؟ » .

« لا » قال القرود.

عند غروب الشمس انتهى الاجتماع الطارىء وأظهر القرود اهتماماً بالغاً بالأمر وربتوا على كتف سنوحي وشدوا على يده مواسين في مصابه الأليم ثم تركوه جالساً على الضفة وتفرقوا عائدين الى كهوفهم . بعضهم يهز رأسه ، بعضهم لا يهز .

○ ○ ○

هانيبال الذي كاد أن يدخله الغرور من دهائه وقدرته على التدمير ، عاد فاكتشف خطأ

فادحاً في حساباته عندما أنهى خطبته ووجد هولاكو قد سبقه على جوهان وأخذها الى مغارته واعتلاها في الطريق مرتين . وفي البداية افقدته الغيرة صوابه وانطلق يركض في أثرهما متوعداً ثم استعاد صفاء ذهنه وتذكر قوة هولاكو وقدرته الخارقة على الضرب بالركبتين ، فتوقف فجأة عن الركض وشرع يحك بكلتا يديه . وكان ذلك يعني أنه قد بدأ يلوم رأسه ، وأن رأسه كذلك يلومه .

تقـديم

سنوحي ظل جالساً على الضفة حتى طرق سمعه نباح الكلاب فنهض واقفاً على عجل وانطلق يترنح داخل الغابة . مرة تصدمه شجرة ومرة يقع في حفرة . عند منتصف الليل وجد نفسه يخوض في المياه الضحلة وراء منحنى النهر وتراجع عائداً الى الغابة وشق طريقه بين الأحراش متهجا دون أن يدري إلى وسط السهل . مرة تصدمه شجرة ومرة يقع في حفرة .

في وسط السهل كان الفهد يبذل محاولة جديدة لكي يتسلق الشجيرة وراء صن يات صن ، وكان ضوء القمر الساطع قد شجعه على المغامرة بتسلق الفروع اللينة وتمكن من الوصول الى منتصف الشجيرة وشرع يناوش القرد بمخلبه آملا أن يحطم أعصابه ويدفعه الى مغادرة مكانه ، لكن صن يات صن تعلق بأعلى فرع في قمة شجيرته وأظهر عزمه على المقاومة . مرة يصرخ ويرفس برجليه ومرة يكتفي بالصراخ .

فجأة تغيرت خطة الفهد وأمسك الفرع بين مخالبه ومد عنقه الى الأمام وبدأ يزحف على بطنه . وفي هذه المرة استطاع أن يحفظ توازنه بصورة أفضل وتسلق صاعداً الى نهاية الفرع

حتى صار بوسعه أن يلمس ضحيته بطرف مخلبه ، لكن سنوحي ظهر إذ ذاك في طرف السهل .

التفت إليه الفهد ، التفت اليه صن يات صن ، شاهداه يترنح بين الأحراش . مرة الى اليمين ومرة إلى الشمال . ظلا ينظران إليه برهة في صمت ثم عادا فتبادلا النظر وسمع كل منهما ما يقوله رأس الآخر . الفهد نزل مسرعاً للحاق به قبل أن يصله التحذير . صن يات صن مد عنقه من بين الفروع وشرع يصرخ محذراً .

« إحترس » قال صن يات صن بأعلى صوته « إنه قادم إليك . أهرب . لا تقف . لا تنتظر » .

توقف سنوحي عن المشي . مد عنقه مصغياً وسمع وقع أقدام ناعمة تركض في اتجاهه على أرض الغابة ثم سمع التحذير مرة أخرى ، وفي هذه المرة قال صن يات صن بصوت مختنق « إبتعد ، عد إلى الوراء ، إنه في أثرك فلا تدعه يصل إليك » ، لكن الفهد كان قد وصل إليه .

○ ○ ○

في غمرة يأسه انحنى سنوحي على الأرض وتحسس حوله باحثاً عن حجر . اصطدمت يده بحفنة من الفروع فضمها في حزمة واحدة وأخذ يضرب بها حوله صارخا . كانت مجرد حزمة من أوراق الشجر والفروع اليابسة ، وكانت تبدو سلاحا محزنا حقا في وجه الفهد ، لكن الفهد تخلى فجأة عن الهجوم .

توقف جامداً في مكانه .

تراجع خطوة الى الوراء ثم تراجع خطوة أخرى ووقف ينظر الى حزمة الفروع . صن يات صن فتح عينيه غير مصدق وطفق يحدق ويحك ظهره . لم يكن قد رأى الفهد خائفاً من قبل ، لم يكن قد خطر بباله أنه أصلا يعرف معنى الخوف .

مرة أخرى تقدم سنوحي في اتجاه الشجيرة شاهراً سلاحه الغامض ومرة أخرى وثب الفهد مزمجرا وأخذ يتراجع أمامه . صن يات صن ظل يحدق حتى اكتشف السر الكامن وراء خوف الفهد ، وإذ ذاك اعتراه النزق وطفق يصرخ ويهز فروع شجيرته . ففي حزمة سنوحي كان ثمة عقرب صغير الحجم يلوح

بزبانته في ضوء القمر ، وكان ممسوكاً بإحكام من أرجله الخلفية بين الفروع وأوراق الشجر اليابسة ، لكن منظره بدا كافيا لايقاف هجوم الفهد .

ثم هبت الريح واختفى القمر وراء سحابة عابرة وبدت النجوم أكثر ضوءا والأشجار أكثر خضرة واستشعر سنوحي الوحشة الهائلة من حوله ورفع صوته مستفسرا . « أين أنا ؟ » قال سنوحي .

« الآن تنصت جيدا » قال له صن يات صن « الآن تعرف أين أنت . تمشي الى اليمين ، ترفع ذيلك قليلا الى أعلى ، تمشي ، تنحرف إلى اليسار ، تمشي وتنحرف ، تصل الى الطحالب ، إنه في أثرك لكنك لا تستطيع

أن تراه » . تحت الشجيرة قال له مرة اخرى « ترفع ذيلك إلى أعلى ، تقف . لا شيء تفعله الآن سوى أن ترفع ذيلك إلى أعلى وتقف » ، ثم هبط مسرعا الى منتصف الجذع ومد له يده ورفعه إلى الشجيرة بعد ان استلم منه حزمة الفروع . الفهد بقي يراقب من بعيد . لم ينسحب ولم يعد الى الهجوم ، وكان مشهد العقرب قد أشاع الرعب في قلبه ، وكان يعرف عنها أكثر مما يعرف القرود .

○ ○ ○

« . . . في الصباح غابت الشمس وهطلت أمطار خفيفة وظهر هولاكو في صحبة جوهان عند المنحدر متشابكي الأيدي وذهبا معا في اتجاه النهر . بعد قليل خرج هانيبال في أثرهما وقصد الأحراش الكثيفة وراء الشلال . بقية

القرود عبروا السهل في قطيع واحد الى أشجار التين ومروا بالقرب من الشجيرة وأبصروا سنوحي يجلس بجانب صن يات صن فأخذوا يتصايحون ويشيرون إليهما لكنهم لم يقتربوا منهما . سنوحي كان يتحسس عينيه صامتا . صن يات صن كان يراقب العقرب ويتحدث مع رأسه » .

. . . . فوق ، في الغرفة المقامة فوق التلة ، اكتشف المراقبون وجود العقرب منذ الصباح الباكر لكنهم اعتقدوا ان القرود قد وضعوه متعمدين في حزمة الفروع بمثابة سلاح ، ووقفوا يتحدثون ويهزون رؤوسهم مدهوشين :

عقرب من فصيلة البوثيديا، أخطر فصائل العقارب واكثرها سطوة على الإطلاق. حجمه

معقول، ووزنه معقول، قدرته على القتل لا تعرف الحدود، يفرز من أربع الى خمس حقنات من السم كل يوم، مزود بعينين فوق رأسه وتسع عيون صغيرة على جانبيه، فعال جداً ضد فصائل القطط، يحسن السباحة ولا يعوقه المطر، سمومه مدمرة للجهاز العصبي ومن خصائصها ان ضحيته يفقد القدرة على الرؤ يا والشم. إذا لدغ الفهد مرتين يستطيع ان يصيبه بالشلل. إذا لدغه مرة واحدة يستطيع ـ عادة ـ أن يعميه.

في غمرة دهشتهم لظهور العقرب غفل المراقبون عن متابعة ما يحدث في الأحراش الكثيفة وراء الشلال ، وعندما تداركوا هذا الخطأ في نهاية المطاف وعادوا لتسليط عدساتهم

على الأحراش كان الموقف سيئا حقا وكان كل شيء - للمرة الثانية - قد بدأ وانتهى .

○ ○ ○

كانت خطة المعركة جاهزة في ذهنه لكنه كان قد طرحها جانباً وبدأ يجرب حلولا سلمية .

فقد خرج هانيبال منذ الصباح الباكر ليحسم مشكلة خاصة مع هولاكو وأخذه من يده الى ساحة واسعة وراء الشلال ووقف يتحدث معه على انفراد . في ذلك الوقت

وضع رأسه على الأرض وهز وسطه مرتين ، التفت الى الوراء ، غطى وجهه بيديه ونبح . كان ذلك يعني « أحس بالخجل لكني أريد ان أفاتحك في أمور جنسية » .

وضع هولاكو رأسه على الأرض وهز وسطه أيضا ، التفت الى الوراء ، التفت مرة أخرى

الى ناحية جوهان ونبح . كان ذلك يعني « تحس بالخجل أو لا تحس بالخجل . أنا لا أتحدث معك بشأنها » .

« لماذا » ؟ قال هانيبال .

« لماذا ؟ » قال هولاكو « ليس لماذا . هذا أمر يخصك وحدك . أنا لا أتحدث معك بشأنها » .

« حسنا » قال هانيبال بلهجة التحذير « تعرف أو لا تعرف ؟ أن القرد الذي يأخذها مني يأتي الفهد ويفقأ له عينه » .
« عينه » قال هولاكو « ليس عينه . الفهد أخوك . الفهد ليس أخوك . أنا لا أتحدث معك بشأنها » .

قبل الظهر كان هانيبال قد لحقه اليأس من

فرص السلام لكنه كان ما يزال يرغب في تجربة اقتراح نهائي . وفي هذه المرة وضع يده على كتف هولاكو وسار بجانبه طويلا ثم لكزه برفق وطفق يترنح ضاحكاً . كان ذلك يعني بوضوح « لا تدعنا نتشاجر . نحن نستطيع أن نقتسمها . أنت نصف وأنا نصف » .

« كيف ؟ » قال هولاكو « نصف قردة لقرد كامل ؟ ! » .

« لا » قال هانيبال « مرة أنت ومرة أنا . تعرف أو لا تعرف هذا يحدث في كل مكان » .

« كيف ؟ » قال هولاكو « أنا أريد مرة ثم أريد مرة أخرى . أنا أريد دائما » .

« دائما » قال هانيبال . « واحد ينزل وواحد

يأخذ مكانه . تعرف أو لا تعرف . هذا يحدث كثيراً » .

لم يصلا إلى نتيجة ، لم يصلا إلى اتفاق ، كان ذلك أمراً محتوماً منذ البداية لكن هانيبال تحت وطأة الخوف كان يحاول ان يتعلق بقشة . ولهذا السبب بدأ رأسه يسخر منه .

على مسمع من طاووس بري قال له رأسه « تريد ان تحصل على قردة ؟ تكون أولا مثل هذا الطاووس ، ريشك ملون ورأسك لامع ، ليس هكذا بهذا الفراء المزري وهذه الرائحة . . » .

« هش » قال هانيبال لرأسه .
على مسمع من أرنب ميت قال له بعد ذلك « لعله مات دفاعا عن شرفه . ما أدراك ؟ لماذا

تنظر اليه هكذا ؟ لعله مات وهو يبذل جهده . . » .

« هش » قال هانيبال .

عند الظهر ، بعد ان تسلطت الشمس اللاهبة على الوادي وحطت الطيور في الظل قال له رأسه على حين غرة « الآن تذهب ، الآن تجده نائما في الظل ، تزحف على بطنك ، تزحف . . » .

« هش » قال هانيبال .

« تدور حول الشلال » قال له رأسه « تتسلق الصخور ، تتسلق ، تجد شجرة الجميز فتنحرف على يمينك . . »

بحذر تقدم هانيبال في اتجاه النهر ومضى يزحف على بطنه . خطوة خطوة وبتردد

واضح . هذه المرة لم تعجبه الخطة . هذه المرة لم يكن متأكدا من رأسه .

○ ○ ○

فوق الشجيرة ظل صن يات صن يراقب العقرب حتى وقت الظهر ، وبعد ذلك تأكد لديه أنها ممسوكة بإحكام . فكسر فرعا طويلا من شجيرته وأدخله في الحزمة ورفعها بين يديه مزهوا . كانت العقرب ما تزال تلوح بزبانتها على طرف عصاته ، وكان صن يات صن قد أصبح يملك بندقية .

فجأة قال له سنوحي « تعرف أو لا تعرف ؟ أن الفهد قد فقأ لي عيني » .

« ليس الفهد » قال صن يات صن وهو يراقب سلاحه مزهواً .

« بلى » قال سنوحي « هكذا جاء وهكذا ضربني » .

« ليس الفهد » قال صن يات صن « فمي يتكلم وأذنك تسمع . ليس الفهد » .

« بلى » قال سنوحي « أنت لا تدري » .

إذ ذاك دوى الصراخ بغتة وراء الشلال وأسرع المراقبون الذين استغرقوا في متابعة العقرب بتسليط عدساتهم على الأحراش والتقطوا ظل هانيبال وهو يعدو بين الأشجار واعتقدوا انه قد ارتكب لتوه جريمة أخرى باسم الفهد ، لكن هانيبال كان بريئا هذه المرة وكان الفهد قد جاء بنفسه .

وقف مزمجرا عند الشلال بين هانيبال الذي ولى هاربا في اتجاه الغابة وبين هولاكو الذي

تجمد في مكانه تحت الشجرة ، وفي البداية ظهر حائراً وغير قادر على اختيار أحدهما لكنه ما لبث أن اتخذ قراره وقصد هولاكو . وطوال الساعة التالية شاهد المراقبون بإثارة متزايدة وبروح خالية من التحيز أول معركة كاملة ومحددة التفاصيل بين الفهد وبين القرود منذ بداية التجربة . كانت الرؤية إذ ذاك جيدة وكان كل شيء واضحا مثل الشمس رغم ان الشمس نفسها كانت غائبة .

ففي البداية تمكن هولاكو من إيقاف هجوم الفهد ورده بعصاته ريثما تسلقت جوهان الى قمة الشجرة ، وبعد ذلك أراد ان يتبعها ونجح في الوصول الى منتصف الجذع لكن الفهد أسقطه على الأرض ثم شرع يهاجمه من فوق ومن تحت ومن دون هوادة حتى أرغمه على

ترك الشجرة واللجوء الى ضفة النهر .

هناك سدد هولاكو ضربة مفاجئة الى رأس الفهد وأجبره على التراجع مذهولا لكنه ما لبث أن استرد وعيه وعاد للهجوم من جديد . وفي هذه المرة فقد هولاكو زمام السيطرة على رجليه وانطلق يركض فوقهما هارباً في اتجاه السهل .

بقية القرود وقفوا يتفرجون ويحكون ظهورهم علامة القلق . لم يتدخل منهم أحد في المعركة ضد الفهد ، لم يحدث شيء مما تقرر في أصل التجربة . هانيبال جلس فوق الصخور ينظر الى الفهد ويتشاور مع رأسه . مرة يقول له هكذا ومرة يقول له هكذا . هوشي منه تسلق إلى ارتفاع خمسة عشر قدما في أعلى شجرة بين أشجار التين وطفق يتفرج على المعركة ويصرخ من دون وعي ، أحيانا

يحذر هولاكو وأحيانا يحذر الفهد . هولاكو ظل يركض حتى انقطعت أنفاسه ثم بدأ يسمع أصواتا وهمية .

« الآن تموت » كانت الأصوات تقول له ، « الآن تلاقي حتفك وتذهب أينما تذهب . مرة تقول هذا كلب ، مرة تزعم أنك ضربته ، ودائما تكذب وتكذب حتى وقعت في شر أعمالك » . هولاكو لم يكف عن الركض لكنه رفع عينيه الى أعلى وقرر أن يعتذر :

« معذرة » قال بعد ذلك بآخر ما لديه من أنفاس (معذرة . كلنا نخطيء . كلنا هكذا » .

« هش » قالت الأصوات « وفّر أنفاسك للركض . إن إنقاذك لم يعد ممكنا إلا بمعجزة » .

« معجزة؟ » قال هولاكو رافضاً أن يوفر أنفاسه « حسنا، لتكن الآن واحدة، ليكن رعداً. . ليكن برقاً ». لكن شيئا لم يحدث في البداية واضطر هولاكو الى مواصلة الجري معتمداً على ساقيه حتى أدركه اليأس، وبعد أن أدركه اليأس حدثت المعجزة.

○ ○ ○

لم يصدق أحد عينيه . حتى المراقبين دققوا النظر مرة ومرتين ، لكن صن يات صن كان يقف حقا في وسط السهل ، عصاته في يده ، عقربه على طرف عصاته ، من دون رعد ولا برق ، ينظر للفهد في عينه ويدعوه شفويا إلى القتال ، مرة يقول له « هب » ومرةيقول له « ها » . الفهد وقف ساكنا . كذلك القرود والمراقبون . كل واحد وضع يده على قلبه

وطفق ينتظر المجزرة لكن صن يات صن كان يعرف ما يعرف .

« هب » قال صن يات صن من جديد ، وفي هذه المرة قفز الفهد مزمجراً وتراجع خطوتين الى الوراء ووقف ينظر الى العقرب طويلا ثم استدار وانطلق يركض في اتجاه الدغل . كل شعرة في فرائه منتصبة الى أعلى . كل جرس في رأسه يدق .

وانتهت المعركة من دون أن تبدأ .

وظهر صن يات صن على مسرح الأحداث في غابة البودونجو باعتباره القرد المعجزة الذي أنقذ القرود من بطش العملاق وأذله أمامهم بقوة عقربه السحرية .

ثم بدأ الاحتفال . واهتزت الغابة من أقصاها الى اقصاها بصراخ القرود الذين

تجمعوا على عجل في وسط السهل وشرعوا يحتفلون طوال ذلك النهار والنهار الذي يليه ونصف النهار الذي يليه. ورغم ان احتفالاتهم لم تخل من مظاهر الخشونة ـ وأحيانا من العنف ـ ولم تزد أبدا عن التلويح بالأيدي واطلاق الأصوات العالية، فقد كان من الواضح أنهم يبذلون جهدهم لاظهار نوع من الغبطة. وقد احتفلوا أولا بانتصار صن يات صن على الفهد، ثم احتفلوا في اليوم التالي بانتصاره على هولاكو، واحتفلوا بعد ذلك بانتصاره على هانيبال وأيضا هوشي منه، واحتفلوا بعودته الى الكهوف، وفي اليوم الثالث احتفلوا بحصوله على جوهان. إذ ذاك كانت الشمس قد أشرقت بعد يومين من المطر الدائم، وكان صن يات صن قد أنهكته الاحتفالات فأسند عصاته الى جذع شجرة

واستلقى على العشب بجانب جوهان . .

○ ○ ○

فجأة ظهر هانيبال متسللا وراءه واتجه نحوه زحفا على ركبتيه ، وسلط عليه المراقبون عدساتهم معتقدين أنه يزمع أن يهاجمه من الخلف ، لكن هانيبال ـ هذه المرة ـ كان يملك فكرة أخرى .

أخذ العصا التي تحمل العقرب . أمسكها جيدا من طرفها ، مدها أمامه مزهواً ، وضعها على بعد شبر واحد من وجه صن يات صن ، وأطلق صرخة عالية في أرجاء الوادي .

القرود (جميع القرود) رفعوا آذانهم وجاءوا راكضين على صوت الصرخة . كل واحد منهم رأى العصا في يده هز له رأسه ، كل واحد

أبدى ترحيبه بالانقلاب .

« حسنا » قال هانيبال « هذا يعود الى شجيرته » وأشار إلى صن يات صن « وهذا يعود معه » وأشار الى سنوحي الذي كان قد عاد الى القطيع محتميا بسطوة صديقه « وهذه تأتي هنا » وأشار الى جوهان .

« الباقي . . » قال هانيبال « الباقي يفتحون آذانهم ويصغون جيدا إلى فمي . أنا أملك العقرب ، أنا أحمله وأطعمه وأتحدث معه . انتم لا تهتمون به . واحد منكم يقترب منه أسلخ له جلده . واحد يحاول أسلخ له قدميه » .

ثم بدأ الاحتفا . . ل .

واهتزت الغابة من أقصاها الى أقصاها بصراخ القرود الذين تجمعوا مرة أخرى في وسط السهل وشرعوا يحتفلون طوال ذلك النهار والنهار الذي يليه والساعات الأولى من النهار الذي يليه. إذ ذاك كان المطر قد عاد للهطول، وكان هانيبال بعد يومين من السهر قد لحقه الارهاق وجلس يغالب النوم تحت الشجر. .

○ ○ ○

فجأة ظهر هولاكو متسللا وراءه واتجه نحوه زحفاً على ركبتيه ، وفي هذه المرة لم يسلط عليه المراقبون عدساتهم لأنهم عرفوا مقدما ما ينوي أن يفعله .

خطف منه العصا . ضربه على ظهره حتى أسقطه على الأرض ثم خطف منه العصا .

وفي لحظة قصيرة ـ بقدر ما يستغرق المرء في أكل موزتين ـ أصبح هولاكو سيد الموقف .

« حسنا » قال هولاكو « هذا يذهب الى الشجيرة » وأشار الى هانيبال وهذه تأتي هنا وأشار الى جوهان .

« الباقي . . » قال هولاكو « الباقي يفتحون آذانهم ويصغون الآن الى فمي . أنا أملك العقرب وأحمله وأطعمه وأتحدث معه أو لا أتحدث معه . أنا أفعل ما أريد . أحيانا يغلبني النعاس ، فأريدكم أن تناموا . أحيانا لا يغلبني ، فأريدكم ان تستيقظوا . واحد منكم يستيقظ قبلي ويدب لكي يسرق العصا أكسر له رأسه ، واحد منكم يحلم بسرقتها أكسر له ضلوعه » .

ثم بدأ الا . . حتفا . . ل .

واهتزت الغابة من أقصاها الى أقصاها وعاد القرود يبذلون جهدهم لاظهار مزيد من الغبطة ، لكن الموقف كان يائساً هذه المرة ، وكان هولاكو بشروطه القاسية قد جعل حياتهم جحيما لا يطاق . فمرة يفاجئهم عند منتصف الليل ، ومرة عند الفجر ، يدب بينهم على أطراف أصابعه وينظر في وجوههم وتحت جفونهم . واحد يجده مستيقظا يتهمه بكذا وكذا ، واحد يجده يحلم يتهمه بكيت وكيت ، ودائما يعذبهم . . ويعذبهم .

○ ○ ○

هوشي منه ، البارع في حبك الحيل ، كان أكثر القرود تعرضاً للعذاب على يد هولاكو ، لكن رأسه لم يسعفه بحيلة مواتية حتى قادته الصدفة ذات يوم الى منطقة الصخور الواقعة عند منحنى النهر . هناك وجد عقربا يلاعب عقرباً في الشمس وسمع رأسه يقول شيئا بصوت عال .

« لم أسمع » قال هوشي منه .

« العقرب » قال رأسه « أنا أتحدث بشأن العقرب » .

« دعنا منه » قال هوشي منه « ماذا يهمنا من أمره ؟ » . ثم قفز بعيدا ومضى الى ضفة النهر لكنه ما لبث ان عاد دون أن يدري وتسلق الصخور ووقف يراقب العقربين من بعيد . إذ

ذاك قال له رأسه « نحتاج الى عصا » .

لماذا ؟ قال هوشي منه .

« وحزمة من أوراق الشجر » قال له رأسه « وشيء نربط به أرجله الخلفية » .

« لماذا ؟ » قال هوشي منه وقفز مبتعدا الى ضفة النهر لكنه ما لبث ان عاد للمرة الثانية ، وفي هذه المرة كان يحمل عصا طويلة في يده .

التقط أحد العقربين بطرف عصاته وثبته على الأرض بفرع صغير في يده وأرغمه على ادخال رجليه الخلفيتين في شق العصا ثم لف حوله حزمة من أوراق الشجر اليابسة وأحكم رباطه ورفعه مزهواً إلى أعلى . وطوال الساعة

التالية ظل العقرب يجاهد لكي يخلص نفسه بالقوة لكن هوشي منه لم يترك له فرصة حقيقية واحدة ، وعندما اعتراه اليأس من استعمال القوة بدأ يتسول حريته .

« دعني أنزل من فضلك » قال العقرب .

« لماذا » قال هوشي منه « أليس حسنا هنا ؟ تأكل وتشرب وتذهب معي الى كل مكان . تحملني وأحملك ، فلا أنت تعرف الوحدة ولا أنا أعرف الخوف ؟ » .

« دعني أنزل » قال العقرب « أنا لا أستطيع أن أحميك » .

« تستطيع » قال هوشي منه « أنت تقف الى جانبي وأنا أقف الى جانبك . واحد يريد ان

يتكلم ، أتكلم أنا معه ، واحد لا يريد ، تتكلم أنت » .

○ ○ ○

عند الظهر شاهد المراقبون بعيون ملؤها الدهشة والغضب التحول العجيب الذي طرأ فجأة على مجرى الأحداث ونسف التجربة من أساسها .

هولاكو كان يحمل عقربه . هوشي منه أيضا كان يحمل عقربه . كلاهما ينظر للآخر في عينه . كلاهما يهز عصاته المميتة ويتكلم . ويتكلم . .

وفي البداية لم يفهم أحد شيئا من كلامهما ، فقد كانا يستعملان لغة جديدة ويتحدثان بأسلوب جديد ، وكانت الأمور قد تطورت فجأة الى هذا الحد .

بعد جهد هائل تمكن المراقبون من فك بعض الرموز وبدأوا يتبينون خيطا من الضوء في محادثات الزعيمين . هوشي منه كان إذ ذاك على المنصة وكان يدعو هولاكو الى ان يقتسم القطيع معه . هولاكو وافق على التقسيم لكنه مد عصاته الى الأمام وشرع يهز وسطه وكان ذلك يعني أنه ينوي أن يأخذ الاناث ويترك له الذكور .

هوشي منه وقف غاضباً وقال شيئا لم يتمكن المراقبون من فهمه ، ثم عاد هولاكو فسحب عصاته ووضعها بجانبه معلنا أنه يوافق على إعطائه بعض الإناث . هوشي منه فكر طويلا ثم رفع رأسه وأشار بعصاته الى جوهان . إذ ذاك وثب هولاكو غاضباً وقال شيئا لم يتمكن المراقبون من فهمه . كانا يتقاسمان الدنيا بينهما

في حصتين متساويتين ، حصة لهذا وحصة لهذا ، وكان من الواضح أنهما لا يفهمان في طبيعة الأشياء ويحتاجان دائما الى إعادة التقسيم .

فبعد قليل وصل هانيبال أيضا حاملاً عقربه فوق عصاته ، ثم وصل صن يات صن حاملا عقربين ، عقرب له ، وآخر لسنوحي الذي جره وراءه لسبب لم يغب عن بال المراقبين . كل واحد حمل سلاحه وجاء مطالبا بإعادة التقسيم ، كل واحد كان يحاسب على قدر عقربه .

وطوال اليوم الأول واليوم الثاني واليوم الذي يليه لم يكف القرود (ولم يكن في وسعهم ان يكفوا) عن تقسيم الدنيا وإعادة تقسيمها من جديد . فقذ ذهب مزيد منهم وأحضروا مزيداً

من العقارب ، وكل يوم كان يذهب المزيد . ليس من الزعماء فحسب او أنصاف الزعماء فحسب ، بل من جميع الذكور وأنصاف الذكور ، والعجائز ، وأنصاف العجائز ، والأطفال وأنصاف الأطفال ، فكل قرد فهم الصنعة من دون عناء وكل واحد كشف السر .

لهذا السبب ، ولعدة أسباب جانبية أخرى كان لا بد من إيقاف التجربة عند هذا الحد ، فلم يكن ثمة طريق آخر أمامها سوى أن تصبح تسجيلا هائلاً فارغاً للكلام الهائل الفارغ الذي يدور ـ وسيدور طويلا ـ في حلقة القرود الهائلة الفارغة .

لهذا السبب . ولعدة أسباب حقيقية أخرى طوى المراقبون عدساتهم وجمعوا أوراقهم وأحرقوا غرفتهم الخشبية معلنين انتهاء التجربة

بنتيجة مؤداها بين ـ بين . كل شيء حسن وليس حسنا ، كل شيء بين ـ بين . لم تنجح ولم تفشل .

. . . . لم يقاتل القرود ،

. . . ولم يكفوا عن القتال .

. . . . لم يطردوا الفهد ،

. . . ولم يكفوا عن مطاردته ،

. . . . لم يحدث شيء ،

. . . ولم يكف شيء عن الحدوث .

لم . . . . ، ولم . . . . لقد كان الأمر أشبه برحلة طويلة إلى ما لا نهاية . فمن طبيعة مجتمع البابون أنه يمشي دائماً وراء واحد ، ومن طبيعة هذا الواحد أنه لا يقاتل بل يحمي نفسه من القتل . أحيانا ضد الفهد ، أحيانا ضد غيره ، مرة هكذا ، ومرة هكذا ، متى تشاء الظروف ومن تشاء الظروف . ان العقرب في يد هذا القرد ليس سلاحاً ضد الفهد بل وسيلة لكي يصبح هو نفسه فهداً كاملا بحاله ، وهي مشكلة تخرج كلية عن نطاق التجربة وإمكانياتها المتاحة وتحتاج الى سنين طويلة وإلى أكثر من فهد .

لقد قام زعماء البابون بتغيير مجرى الأحداث ووصلوا بالتجربة الى طريق مسدود ووضعوا لها خاتمة سهلة من عندهم لكن مشكلتهم أنهم أنفسهم ظلوا يبحثون بيأس (ويقال أنهم ما

يزالون يبحثون بيأس أكثر) عن أي حل ممكن بأي شكل ممكن وأية خاتمة .

خَاتِمَة أولى

إعْتِراضٌ

في اجتماع القمة الذي عقده الزعماء في اليوم التالي على حافة الطرف الغربي تقدم هولاكو باعتراض مفاجىء على استعمال الأسلحة وكان فيما يبدو يعاني شعورا هائلا بالحرقة، فقد ظل يصرخ ويخبط صدره بيديه ويذرع الساحة جيئة وذهابا ويزمجر كلمة من هنا وكلمة من هنا. وبعد ساعة كاملة تبين الزعماء خيوط القصة العامة وفتحوا عيونهم الخالية من الرموش ونظروا الى بعضهم صامتين. فقد قام أحد القرود الذين لا قيمة لهم ولا طعم لهم ولا وزن لهم باغتصاب جوهان بعد أن هددها بعقربه واعتلاها مرات ومرات على مشهد من هولاكو الذي لم يكن بوسعه أن يحرك ساكنا. في نهاية قصته كان هولاكو لا يتحدث مثل هولاكو.

« رأيته بنفسي » قال للزعماء « هكذا كان يمسكها وهكذا كان يعتليها، وعندما طلبت منه أن يتركها وشأنها هددني بعقربه وقال لي ما قال لي ».

« هل قتلته؟ » سأله سنوحي الذي كان يعتقد أنه يرأس الجلسة.

« كيف تقتله؟ » قال هولاكو « واحد يحمل سلاحا مثل سلاحك، كيف تقتله أو تضربه أو حتى تشد له أذنيه. لقد أدرت له ظهري ومشيت ».

« هه » قال سنوحي ساخرا.

« لماذا هه؟ » قال هولاكو « لماذا لا تنزل وتجرب بنفسك. كل قرد منهم يملك الآن عقربه، وكل واحد منهم يستطيع أن يضعه في عنقك ويقول لك اركع »

بعد جدال متطاول استمر من وقت الظهر الى وقت الظهر الذي يليه، تمكن الزعماء من الوصول الى شبه اتفاق على تجريد القرود العاديين (الذين لا قيمة لهم ولا وزن لهم ولا طعم لهم) من الأسلحة وتحريم استعمالها عليهم، وأصدروا شبه قانون بقتل كل قرد يحمل أو يساعد في حمل ـ عقرب أو شبه عقرب، ميت أو غير ميت. لكن المشكلة لم تنته حقا عند هذا الحد.

فقد اختلف الزعماء أنفسهم بشأن جوهان، وأظهر كل واحد منهم رغبته في الحصول عليها، ورفع عصاته مزمجرا في وجه الآخر. ولولا أن سنوحي وقف وتكلم متقدما بحل حقيقي للمشكلة، لأدى الخلاف إلى إراقة دماء الزعماء، لكن سنوحي وقف وتكلم:

« لماذا هكذا؟ » قال سنوحي « لماذا نتشاجر من أجل قردة؟ نحن نستطيع أن نقتسمها، مرة أنت ومرة أنت ومرة أنت ومرة أنا ».

« كيف؟ » قال هولاكو « ربع قردة لقرد كامل؟ ».

« لا » قال سنوحي « مرة أنت ومرة أحد غيرك. هذا يحدث في كل مكان. تعرف أو لا تعرف ».

هولاكو التزم الصمت، كان قد سمع هذا الكلام من قبل ورفض أن ينصت إليه، وكان يحس ـ هذه المرة ـ أنه لم يعد بوسعه أن يرفض الإنصات. وقد التزم الصمت ووضع همومه في صندوق صدره وأعلن موافقته على التقسيم لكنه لم ينس أن يوجه ضربة مميتة إلى القرد الذي تقدم بالاقتراح:

«هذا» قال هولاكو بعد صمت طويل مشيرا إلى سنوحي «هذا الأعمى لا يشترك معنا. لماذا يشترك؟ فلعله يولد لنا قردة من دون عينين. أو لعله.. أو لعله، دعونا منه، الأعمى يكتفي بيده».

«كيف؟» قال سنوحي الذي كان يعتقد أنه يرأس الجلسة.

خَاتِمَة ثانيَة

إعْتِراض آخر

في إجتماع القمة الذي عقده الزعماء في اليوم التالي على حافة الطرف الشرقي، تقدم هانيبال باعتراض مفاجىء ورفع مخلبه مطالبا بالكلام وعندما جاء دوره شرع يصرخ ويصرخ ويخبط صدره هائجا ويشير الى صن يات صن.

« هذا » قال هانيبال « هذا تعرفونه بأنفسكم. تدير له ظهرك، يشدك من ذيلك، تغفو بجانبه يسرق عصاتك. لماذا يشترك معنا؟ لماذا لا نطرده ».

« اسكت » قال صن يات صن، لكن هانيبال رفض أن يسكت.

« تعرفونه » قال من جديد « كل واحد فيكم

يعرفه. تقول له هكذا، يقول لك هكذا. تمسكه من هنا، يطلع لك من هنا ».

« اخرس » قال صن يات صن، وفي هذه المرة أشار خفية الى عين سنوحي الذي كان ما يزال يعتقد أنه يرأس الجلسة. كانت عينه دامية ومغطاة بالتراب، وكان من الواضح ان صن يات صن يشير إليها مطالبا بثمن سكوته.

« لماذا؟ » قال هانيبال مستشعرا بعض الدهشة.

« اخرس » قال صن يات صن « تتكلم عني، أتكلم عنك ».

« ماذا؟ » قال هانيبال مستشعرا بعض الخطر، ثم قفز فجأة وأخذ غريمه من يده وذهبا معا إلى وسط السهل وتبادلا الحديث طويلا على انفراد. لم يعرف أحد ماذا قال كلاهما للآخر (حتى اليوم لم يعرف أحد) لكن هانيبال عاد فسحب اعتراضه بشأن صن يات

صن ووقف يبرر سلوكه أمام الزعماء في خطبة مملة عن حاجة القرود الى نبذ الخلافات الشخصية والتكتل في وجه الظروف، وفي نهاية الخطبة لم يرتفع سوى صوت مشجع واحد:

« هذا حسن » قال سنوحي الذي كان يعتقد أنه يرأس الجلسة.

خَاتِمَـةٌ ثَالِثَةٌ

آخر إعْـتِراض

في اجتماع القمة الذي عقده الزعماء في اليوم التالي لم يجد أحد ثمة ما يعترض عليه، فتطوع هانيبال لقتل الوقت بحكاية مختلفة عن معركته مع الفهد، لكن الزعماء لم يعرفوا أنها مختلقة واضطروا جميعا ـ واحدا بعد الآخر ـ إلى اختلاق حكايات مماثلة.

هولاكو زعم أنه تعارك مع الفهد مرتين وغلبه مرتين.

هوشي منه البارع في حبك الحيل لم تعجبه هذه الصياغة الفجة واختار أن يروي قصته ببطء مشوق وبأسلوب أكثر إثارة. وكان قد ذهب بعيدا في حكايته ووصل الى الجزء الذي يقابل فيه الفهد عند ضفة النهر ويشده من رأسه ويغطسه تحت الماء، وكان يخطط لكي يترك الفهد يموت غرقا في نهاية الحكاية لولا أن الفهد ظهر فجأة (بلحمه ودمه) عند مدخل الوادي.

سار طويلا في وسط السهل، مخلبان فوق مخلبان تحت، بهدوء ومن دون إثارة، فلم يعد في حيرة من أمره، لأنه إذ ذاك لا يمشي بل يتوقف وينصت إلى رأسه لكنه لم يعد في حيرة من أمره.

.. وكان قد توقف وأنصت الى رأسه طوال اليومين الماضيين وسمعه يتحدث بلهجة واثقة عن القرود وعقاربهم، وسمعه يقول له بعد آخر.. آخر اعتراض «لا تكترث لهم، لا تجعل منهم قصة، فالزعماء لا · يقاتلون بل يحمون أنفسهم من القتل. هذا فرق لا تراه أنت الآن لأن اعداءك دائما أمامك، لكن الزعماء يضعون أعداءهم تحت أقدامهم. ولهذا السبب هم زعماء. واحد يدوسون رأسه، وواحد ينزلقون فوق صلعته، أحيانا هكذا.

أحيانا هكذا. مرة بالرأس ومرة بالذيل. لا تعرف متى، لا تعرف من ».

ثم قال له رأسه:

« جائز ان يعترض طريقك واحد منهم ويلوح لك بعصاته، جائز ان يعترض طريقك غيره ويلوح لك بيده. لا تكترث لهم، لا تجعل منهم قصة، فلا أحد منهم يستطيع أن يكون ضدك ولا احد منهم يحب أن يكون معك ».

ثم قال له رأسه:

« نصف عدوك ليس هو عدوك كله. أنت تمشي فقط وتنظر حولك. واحد تجده يحمل عقربا، تتركه يحمله. واحد تجده يحمل طفلا،

تأخذ منه الطفل. فنصف عدوك ليس هو كل عدوك». وكان الفهد يعرف فقط أن رأسه يعرف أكثر.

عند مدخل الوادي وجد الزعماء يراقبونه حاملين عصيهم المميتة لكنه لم يهتم بهم ولم يتوقف لكي ينظر إلى عقاربهم كما تعود أن يفعل في المرات السابقة بل دار حولهم من بعيد وذهب إلى منتصف الوادي وقصد إحدى الإناث التي كانت ترضع طفلها بين الطحالب. زحف وراءها دون أن تراه. كل شعرة في فرائه هامدة في مكانها، كل جرس في رأسه لا يدق.

الزعماء لم يفعلوا شيئا. (ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا؟) الزعماء لم يقولوا شيئا. (ماذا كان بوسعهم ان يقولوا؟).

حتى هوشي منه الذي كان متحمسا لسرد حكايته على الأقل، تخلى عنها وتوارى بين الأشجار آملا ان ينساه كل أحد وكل شيء، لكن صوتاً مألوفاً ارتفع فجأة في الصمت المطبق:

« إحكوا » قال سنوحي الذي كان ما يزال يعتقد أنه يرأس الجلسة .

صدر من سلسلة كتاب الشعب

لسنة 1391 من وفاة الرسول 1982 ميلادية

	العنوان		المؤلف
1	الغربان وجوقة الجياع حالة حصار بلا مناسبة	مسرحيتان	البوصيري عبدالله
2	المسرح الذي نريده		محسن الخياط
3	أسرار القواعد البريطانية في ليبيا		علي شعيب
4	رموز الهزيمة في الثقافة العربية		فوزي البشتي
5	صور من جهاد الليبيين في فلسطين 48/49		السنوسي شلوف
6	الإرهاب الأمبريالي		محمد المصري
7	فضائل الدم بين الطب والقضاء		ممدوح يوسف الجاسم
8	عرب البرازيل		عبد اللطيف بوكر
9	أواكس طروادة		فارس قويدر
10	تطور التعليم العالي في ظل الحضارة الإسلامية		د. عمر التومي الشيباني
11	الكيمياء والدواء		محمد فهمي زعتر
12	عبقرية العرب في لغتهم الجميلة		د. محمد التونجي

